

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٠ جمادى الأولى ١٤٤٣ هـ
عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ نِعْمَةَ الْإِيمَانِ مِنْ أَعْظَمِ مَنَنِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وَالْإِيمَانُ هُوَ سَبِيلُ الْوُصُولِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَمِنَةِ الْمُطْمَئِنِّةِ، وَالْفَلَاحِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وَقَالَ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَلَهُ أَرْكَانٌ سِتَّةٌ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَأَمَّلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ سُرْعَةَ مُرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، بَلِ الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ، وَخُذُوا مِنْ ذَلِكَ الْعِبْرَةَ وَالْعِظَةَ فِي سُرْعَةِ انْقِضَاءِ الْأَعْمَارِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ عَامِرَةً بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَالْحَاسِرُ مَنْ أَمْضَى حَيَاتَهُ فِي لَهْوٍ وَإِعْرَاضٍ وَسَهْوٍ وَغَفْلَةٍ.

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ عَنْ صِفَاتِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: هَذَا تَنْوِيهُ مِنَ اللَّهِ بِذِكْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذِكْرِ فَلَاحِهِمْ

وَسَعَادَتِهِمْ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ وَصَلُّوا إِلَى ذَلِكَ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ الْحَثُّ عَلَى الْإِتِّصَافِ بِصِفَاتِهِمْ، وَالتَّرْغِيبُ فِيهَا. فَلْيَزِنِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ؛ يَعْرِفُ بِذَلِكَ مَا مَعَهُ وَمَا مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْإِيْمَانِ، زِيَادَةً وَنَقْصًا، كَثْرَةً وَقَلَّةً.

فَقَوْلُهُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: قَدْ فَازُوا وَسُعِدُوا وَنَجَحُوا، وَأَدْرَكُوا كُلَّ مَا يُرَامُ، الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْكَامِلَةِ أَنَّهُمْ ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ: هُوَ حُضُورُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، مُسْتَحْضِرًا لِقُرْبِهِ، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ قَلْبُهُ، وَتَطْمِئِنُّ نَفْسُهُ، وَتَسْكُنُ حَرَكَاتُهُ، وَيَقِلُّ التَّفَانَةُ، مُتَأَدِّبًا بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ، مُسْتَحْضِرًا جَمِيعَ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ فِي صَلَاتِهِ، مِنْ أَوَّلِ صَلَاتِهِ إِلَى آخِرِهَا، فَتَنْفِي بِذَلِكَ الْوَسَاوِسُ وَالْأَفْكَارُ الرَّدِيئَةُ، وَهَذَا رُوحُ الصَّلَاةِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا، وَهُوَ الَّذِي يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ، فَالصَّلَاةُ الَّتِي لَا خُشُوعَ فِيهَا وَلَا حُضُورَ قَلْبٍ، وَإِنْ كَانَتْ مُجَزَّةً مُثَابًا عَلَيْهَا، فَإِنَّ الثَّوَابَ عَلَى حَسَبِ مَا يَعْقِلُ الْقَلْبُ مِنْهَا.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا فَائِدَةَ. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رَغْبَةً عَنْهُ، وَتَنْزِيهًا لِأَنْفُسِهِمْ، وَتَرْفُوعًا عَنْهُ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا، وَإِذَا كَانُوا مُعْرِضِينَ عَنِ اللَّغْوِ، فَأِعْرَاضُهُمْ عَنِ الْمُحَرَّمَ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى، وَإِذَا مَلَكَ الْعَبْدُ لِسَانَهُ وَحَزَنَهُ إِلَّا فِي الْخَيْرِ كَانَ مَالِكًا لِأَمْرِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ وَصَّاهُ بِوَصَايَا قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟»، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْحَمِيدَةِ: كُفُّ أَلْسِنَتِهِمْ عَنِ اللَّغْوِ وَالْمُحَرَّمَاتِ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أَي: مُؤَدُّونَ لِزَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ، عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْأَمْوَالِ، مُزَكِّينَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَدْنَسِ الْأَخْلَاقِ وَمَسَاوِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَزْكُو النَّفْسُ بِتَرْكِهَا وَتَجَنُّبِهَا، فَأَحْسَنُوا فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ، فِي الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ بِأَدَاءِ الزَّكَاةِ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ عَنِ الزَّنَى، وَمِنْ تَمَامِ حِفْظِهَا تَجَنُّبُ مَا يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ، كَالنَّظَرِ

وَاللَّمْسِ وَنَحْوِهِمَا. فَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ. ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مِنْ
الْإِمَاءِ الْمَمْلُوكَاتِ. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ بِقُرْبِهِمَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَحَلَّهُمَا.

﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ غَيْرَ الزَّوْجَةِ وَالسَّرِيَّةِ. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الَّذِينَ تَعَدَّوْا مَا أَحَلَّ اللَّهُ إِلَىٰ مَا
حَرَّمَهُ، الْمُتَجَرِّثُونَ عَلَىٰ مَحَارِمِ اللَّهِ. وَعُمُومُ هَذِهِ الْآيَةِ، يَدُلُّ عَلَىٰ تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ زَوْجَةً
حَقِيقَةً مَقْصُودًا بَقَاؤُهَا، وَلَا مَمْلُوكَةً، وَتَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُحَلَّلِ لِذَلِكَ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي حِلِّ الْمَمْلُوكَةِ أَنْ تَكُونَ كُلَّهَا فِي مِلْكِهِ، فَلَوْ كَانَ لَهُ
بَعْضُهَا لَمْ تَحِلَّ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ، بَلْ هِيَ مُلْكٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، فَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي
الْمَرْأَةِ الْحُرَّةِ زَوْجَانِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي الْأُمَّةِ الْمَمْلُوكَةِ سَيِّدَانِ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أَي: مُرَاعُونَ لَهَا، ضَابِطُونَ، حَافِظُونَ، حَرِيصُونَ عَلَى الْقِيَامِ
بِهَا وَتَنْفِيذِهَا، وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَمَانَاتِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ لِلَّهِ، وَالَّتِي هِيَ حَقٌّ لِلْعِبَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا
عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾.
فَجَمِيعُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ أَمَانَةٌ، عَلَى الْعَبْدِ حِفْظُهَا بِالْقِيَامِ التَّامِّ بِهَا، وَكَذَلِكَ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَمَانَاتُ
الْأَدَمِيِّينَ، كَأَمَانَاتِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْرَارِ وَنَحْوِهِمَا، فَعَلَى الْعَبْدِ مُرَاعَاةُ الْأَمْرَيْنِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَتَيْنِ ﴿إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. وَكَذَلِكَ الْعَهْدُ، يَشْمَلُ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَالَّذِي بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ الْعِبَادِ، وَهِيَ الْإِلْتِزَامَاتُ وَالْعُقُودُ الَّتِي يَعْقِدُهَا الْعَبْدُ، فَعَلَيْهِ مُرَاعَاتُهَا وَالْوَفَاءُ بِهَا، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ
التَّفْرِيطُ فِيهَا وَإِهْمَالُهَا. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَي: يُدَاوِمُونَ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا
وَحُدُودِهَا وَأَشْرَاطِهَا وَأَرْكَانِهَا، فَمَدَحُهُمْ بِالْخُشُوعِ بِالصَّلَاةِ، وَبِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ أَمْرُهُمْ إِلَّا
بِالْأَمْرَيْنِ، فَمَنْ يُدَاوِمُ عَلَى الصَّلَاةِ مِنْ غَيْرِ خُشُوعٍ، أَوْ عَلَى الْخُشُوعِ مِنْ دُونِ مُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ
نَاقِصٌ. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ الَّذِي هُوَ أَعْلَىٰ

الْجَنَّةِ وَوَسَطَهَا وَأَفْضَلُهَا؛ لِأَنَّهُمْ حُلُّوا مِنْ صِفَاتِ الْخَيْرِ أَعْلَاهَا وَذُرُوتَهَا، أَوْ الْمُرَادُ بِذَلِكَ جَمِيعُ الْجَنَّةِ؛ لِيَدْخُلَ بِذَلِكَ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى دَرَجَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لَا يَظْعَنُونَ عَنْهَا، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا؛ لِأَشْتِمَالِهَا عَلَى أَكْمَلِ النَّعِيمِ وَأَفْضَلِهِ وَأَتَمِّهِ، مِنْ غَيْرِ مُكَدَّرٍ وَلَا مُنْغَصِّ. اهـ

عِبَادَ اللَّهِ: لَقَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ بَيْنَ حَقِّ الْخَالِقِ وَحَقِّ الْمَخْلُوقِ، وَبَيْنَ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَبَيْنَ الْأَعْمَالِ اللَّازِمَةِ وَالْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ. وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ أَسْبَابَ الْفَوْزِ، وَهِيَ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ الْخَاشِعَةِ، وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا لَا يَنْفَعُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَحِفْظُ الْفُرُوجِ عَنِ الْحَرَامِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَاتِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ. ثُمَّ خُتِمَتِ الْآيَاتُ بِذِكْرِ الْجَزَاءِ الْحَسَنِ لِأَهْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ، وَجَزَاءِ الْإِحْسَانِ الْإِحْسَانَ، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: حَقِيقٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَقَفَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ أَبْرَزُ صِفَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَلِيَّةِ وَالْأَوْصَافِ الرَّفِيعَةِ؛ لِيَفُوزَ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ الَّذِي ذَكَرَهُ رَبُّنَا ﷻ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وَالْفِرْدَوْسُ هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ جَاءَ تَفْسِيرُهَا فِي آخِرِ حَدِيثٍ مِنْ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ، وَبِهِ اخْتِمْ سُنَنُهُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾.